الواحدة المطلقة هي الشهادة ، فاذا أسميتها الحق او العدالة او الجمال او الفضيلة أو ... لم تتعد مسمياتها على تكثرها ، دون ان يكون هناك تعدد في الغايات ؛ الشهيد لا تتعدد لديه الغايات ، واذا تعددت ظاهريا فانما هي وجوه لشيء واحد . ولهذا فان الشهيد لا يقاتل حمية ولا يقاتل شجاعة (أي ليتباهى بشجاعته) ولا يقاتل تكاثرا ولا يقاتل ابتغاء عرض . الشهيد انسان دقيق في انتظامه المسلكي ، ولهذا فان الرسول لم يعترف بالشهادة لرجل من الرماة قتل بعد ان امره الرسول هو ومن معه بالتحول عن مواقعهم ، كما أبى الاعتراف بالشهادة لرجل غلّ شملة (أي أخذها خلسة وخبأها) . الشهيد عازم لا يعرف التردد ، ولذلك كانت صورة عبدالله بن رواحة مختلفة عن صورة صاحبيه اللذين استشهدا قبله في معركة مؤتة ، اذ ادركته ونية وتردد ، وجعل يحث نفسه على الاقدام بقوله :

أقسمت بالله لتنزلنّه ... طائعة أولا لتكرهنه
ان أجلب الناس وشدوا الرنه ... مالي اراك تكرهين الجنه !!

والشهيد ايضا ... حسبنا ؛ انه يعرف كل ذلك ، يعرفه ويخلفه وراءه ، ونظل نحن نصب الحبر في التغني بهذه المثل .

هو الآن يمضي ويتركنا
كي نعارض حينا
ونقبل حينا

وهذه ثنائية جديدة نحسنها نحن : « المعارضة والقبول » ونتردد بين طرفيها طويلا؛ مبدأ المساومة كأن الارض سلعة ، يا للفظاعة !! أما هو فلا يستطيع شيئا من ذلك لانه قد اختار وقضي الامر . ولم يتردد — كما نفعل نحن — وهو غير محكوم برغبات الحياة وحب العيش وتقلبات الظروف ؟

هو الآن يمضي شهيدا
ويتركنا لاجئينا

وهذه ثنائية أخرى طرفاها : « هو — نحن » ولكنها كانت حاضرة منذ البداية ، الا انها تحددت وتبلورت بالتسمية المميزة « الشهيد — اللاجئون » ولا تسألني ماذا يعني الشاعر بكلمة « اللاجئين » ، فانك تستطيع ان تراهم حيثما التفت ؛ أما الشهيد فقد أبى ان يكون لاجئا بل جعل الارض لاجئة في جراحه ... وأما نحن فقد يطول بنا الوقت قبل ان نكتشف الارض فينا ؛ مع انه قد جاء الحديث « ما من مسلم يظلم بمظلمة فيقاتل فيقتل الا قتل شهيدا » ، واي مظلمة أشد من سلب الارض — الوطن ؟!